المحاضرة الرابعة: الموضوع المسرحي.

يعد الموضوع بكل بساطة هو تلك الفكرة التي يريد الكاتب إيصالها إلى الناس في عصره، ولو رجعنا إلى تاريخ الأدب كله لوجدنا أنه كان ميدانًا للأفكار، بل يمكن القول أن إيصال الأفكار إلى الناس هو الذي خلق الأدب كله في جميع أنواعه.

كما أن محصلة النتاج البشري هو الفكر، الذي جعل من المسرحية الناطق الرسمي باسم الإنسان في الفن، أين ساهم في اكتسابه انتصاراته الروحية والاجتماعية، وبالموضوع كُشفت الحكومات والأنظمة المستبدة، وثار الكتاب ضد الجهل والفساد الأخلاقي والطبقية الاجتماعية[i].

والمسرح هو أحد التعبيرات عن المطامح الاجتماعية والسياسية والإنسانية التي كان المجتمع يسعى إليها، وسبب ذلك أن المسرح شديد الالتصاق بالمشاهدين، فيخاطبهم مباشرة ويكون لهم رأيا جماعيًا.،يؤدي ذلك إلى نوع من التوعية والدفع على اتخاذ المواقف. وحين انتشرت البريختية وأمثالها في أن يكون المسرح محرضًا للناس على التغيير ويخلق عند الناس موقفًا جماعيًا حول أمر من الأمور بسبب طبيعة صلته المباشرة الحية المثيرة بهم. "والحكايات والنوادر القصيرة التي تروي حدثا ما تثير سلسلة الأفكار أسرع من الموضوعات، ولهذا من المستحسن التركيز فيها"[ii].

تطرق أرسطو في تعريفه للتراجيديا إلى الفعل النبيل التام الذي يعني تناول موضوعات جادة وعلى قدر عظيم من الأهمية والتأثير، ومعالجة قضايا السلوك الإنساني وصراعه مع نفسه ومع من حوله من كائنات[iii]. أي على الكاتب أن يختار المواضيع المعالجة من الناحية الجمالية والأخلاقية حتى وإن كانت غير مقبولة نظريا، إلا أن الكاتب المقتدر يستطيع أن يجعل من مواضيعه قابلة للتصديق أخلاقيا عبر مبدأ

السببية المنطقية التي تفضي إلى نهاية منطقية، فيحمل الموضوع في طياته قيما تترسخ في أذهان الجماهير لتصل إلى هدف التطهير.

لو راجعنا النتاج المسرحي عند أمة من الأمم في عصر من العصور، لوجدنا أن جميع كتاب ذلك العصر داروا حول موضوعات رئيسية واحدة تعد على أصابع اليد، وهي الموضوعات ذاتها التي تناولها بقية المبدعين، وإنه لمن "المستحيل أن نفكر في موقف درامي جديد، والهدف يجب أن يكون نظرة جديدة وموقع مختلف أو معالجة معاصرة للموضوع القديم" [iv]، إذ تحول الفن المسرحي إلى محلل اجتماعي وناقد سياسي وناصر البشرية على المظالم، ومن هذا الموضوع نبعت جميع الدعوات الاشتراكية في مختلف تلويناتها، هذا الموضوع استولد أفكارا قليلة هي: (الفقر، الظلم الاجتماعي، الحب، العاطفة، التكافل، القهر السياسي، الدعوة إلى التغيير) تفرعت عن موضوع أصلي هو واقع المجتمعات، وإذا به يخص الحياة العربية والمجتمع العربي، ولو راجعنا مجمل النتاج الأدبي والفني والفكري الذي أبدعه العرب، لم نجده يخرج عن هذا الموضوع بجميع فروعه المختلفة.

إن أهمية الموضوع في المسرحية، تنبع من أنه يصبح نهر الأفكار العظيمة التي تنير درب البشرية، وهذا الدور الكبير للموضوع والمسرح لا يكون خاليا من (الذهنية) بحجة أنه فن بصري قبل وبعد كل شيء، ولعل إريك بينتلي قد أجمل أهمية الموضوع بقوله: "إذا كان الذهن الذي ينبثق عنه الفكر، يلعب دورًا مهمًا في الأدب عمومًا، وفي الأدب الدرامي خصوصا]...[وإن الدراما ليست أكثر عاطفة وحسب، بل أكثر فكرا أيضا]...[وموجة الدراما العظيمة تهدر بفكرة معينة، وهذه الفكرة هي الروح التي تشيع في الحركة الجديدة في التاريخ، إنها صورة جديدة للإنسان" [v]، وهذه الفكرة التي يضعها الكاتب المسرحي والتي يستخلصها فريق العمل المسرحي لكي تتحول من فكرة في المسرحية إلى رسالة سامية لها. ولابد للعرض المسرحي أن يحقق لنفسه هدفًا واضحًا وعميقًا يربط علاقته بالمتفرج، وكلما كان الهدف الأعلى

عميقا وقويا وقريبا من الناس كان الإقبال عليه كبيرا، وقد يشفع الموضوع الحي القوي العميق لكثير من أخطاء العرض المسرحي، لكن الموضوع الضعيف أو البعيد عن روح العصر سيفقد العمل المسرحي نكهته وانسجامه والرسالة التي وجد من أجلها.

لا بد للموضوع أن يكون حاضرًا في ذهن الكاتب المسرحي وواضحًا ومركزا قبل الدخول في بناءه الدرامي، لأن المسرحية ما هي إلا حكاية تقوم على صراع بين طرفين، ولا يتصارع الناس في الحياة من غير سبب، وليس سبب الصراع إلا موضوع المسرحية وفكرتها وهدفها الأعلى وغايتها الفكرية والإنسانية والعاطفية، وهذا الموضوع هو المعركة الفكرية التي خاضها الكاتب عبر تجاربه الحياتية التي تعطي النص قيمته الأدبية.

تختلف الموضوعات في طريقة معالجتها إما باستخدام المؤلف/السارد في جزء، وفي جزء آخر يتقمص شخصية أخرى غير شخصيته ثم يروي القول على لسانها. ويرى أرسطو أن محاكاة الموضوع تأتي إما في هيئة حوار مباشر كما في الدراما، حيث تقوم الشخصيات تمثيل الأفعال تمثيلا مباشرا، و إما سردا كما في الملحمة أو الرواية عن طريق الكلام غير المباشر [vi].

إذن، فمعالجة موضوع أو قضية ما لا يقتصر على وسيلة من الوسائل يجب توفرها كي يصل مغزاها ورسالتها إلى المتلقي، وإنما وجوب إيجاد الكيفية المثلى والصيغة المناسبة قصد إقناع المتلقي من جهة وإيصال فكرة المؤلف وموضوعه من جهة أخرى.

---

[i] - ينظر، ستيوارت كريفش، صناعة المسرحية، تر: عبد الله معتصم الدباغ، دار المأمون، بغداد-1986، ص89.

[ii] - م ن، ص91.

[iii] - ينظر شكري عبد الوهاب، النص المسرحي، م س، ص18.

[iv] - ينظر، ستيوارت كريفش، صناعة المسرحية، م س، ص89.

[v] - إريك بينتلي، الحياة في الدراما، م س، ص114.

[vi]- أرسطو فن الشعر، تر إبراهيم حمادة، م س، ص72.